الإمام المجدد

السيد محمد ماضي أبو العزائم

Abul Azayem

www.abulazayem.com

Version 1.5 / April, 2023

التائبون

الإمام المجدد

السيد محمد ماضي أبو العزائم

١٢٨٦ - ١٣٥٦ هجرية / ١٨٦٩-١٩٣٧ ميلادية

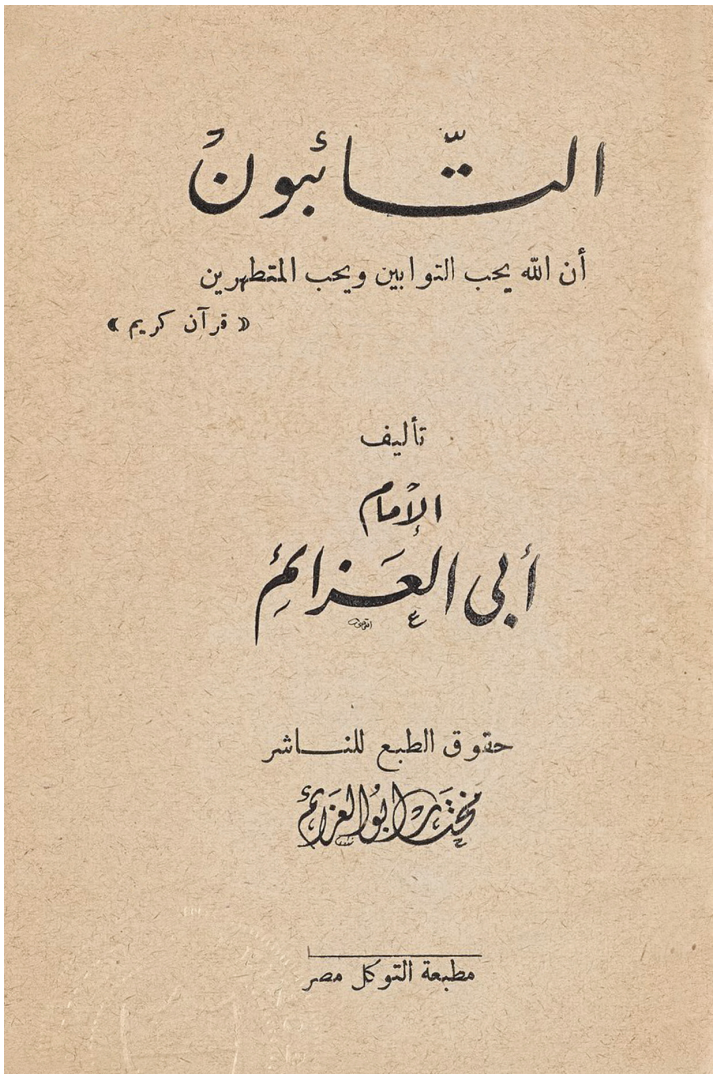

ورد نص كتاب " التائبون" فى كتابى " الفرقة الناجية" و" حديث الجمعة" .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة الكتاب

الحمد لله فتح أبواب التوبة واسعة للمذنبين والصلاة والسلام على الشفيع الأعظم والرسول السيد السند الأمين سيدنا مولانا محمد صلوات الله عليه.

التائب من الذنب كمن لا ذنب له

وبعد فما الحياة الإنسانية إلا تفاعل بين عاملين أساسيين فى تاريخ البشر منذ خلق الله آدم وصوره باليدين للحكمة الإلهية البالغة التى هى إعداده لأن يكون خليفة عنه سبحانه فى هذا العالم.

وهذا التفاعل هو ذلك الصراع العنيف بين قوتى الحق والباطل أو بين عالم الفضيلة والرذيلة أو بين معالم المعصية التى بها يبعد الإنسان عن ربه بما كسبته يداه وبين مظاهر الرجوع إليه سبحانه بالتوبة إلى خالقه ومبدعه ومولاه.

وهل كانت التوبة إلا ثمرة هذا التفاعل ونتيجة هذا الصراع الذى يتسلط على الإنسان قيوده إلى أوبة للحق حميدة حين يستمع إلى نداء الحق بعد أن أسرف فى ذنوبه ولج فى طغيانه، ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الزمر ٥٣.

هنالك تقوى عوامل الخير فيه وتبتعد دوافع الشر عنه فيصبح الإنسان ملكاً، لا بل هو أعظم عند الله من ملك، ذلك لأنه نفذ من عوامل سيئة أحاطت به إحاطة السوار بالمعصم، ومن دوافع للشر ملازمة له ملازمة الظل لصاحبه إلى فسيح ملكوت الله تعالى، وخصوصاً عندما يجد ذلك فى صريح قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ البقرة ٢٢٢ .

هذه هى التوبة وهؤلاء هم التائبون فأين نحن منها ومنهم، نسأل الله تعالى أن يجملنا بحقيقتها وأن يجعلنا من أهلها، وأن يحقق للعالم الإسلامى صحة العودة إلى الله تعالى بهذه التوبة النصوح، والتى ستجد أيها القارئ الكريم صفحة ناصعة من آثارها مبوبة فى هذا البحث القيم لإمامنا الراحل الكريم السيد محمد ماضى أبو العزائم تغمده الله برحمته.

جماعة أولى العزم

التوبـة

هى الإقلاع عن الباطل قولاً وعملاً واعتقاداً والرجوع إلى الحق قولاً وعملاً واعتقاداً، ولا تقشعر الجلود ولا تميل القلوب للتوبة إلا بولاية من الله سبحانه وتعالى للعبد، وعلم يتفضل به عليه يكشف له به الستار عن الباطل وقبحه، وعن الحق والخير الذى ينال به الفوز، حتى تحل الرغبة فى الحق محل الرغبة عنه، والمسارعة إلى الخير محل المسارعة إلى الباطل، وعندها يتمثل للسالك قبح عمله وسوء فعله وما فاته من الخير العظيم فى زمان معصيته، وما ارتكبه من الإثم العظيم وتعديه حدود ربه سبحانه وتعالى، ويتمثل ما كان يناله من الخير وما اكتسبه من الآثام فتضيق عليه الأرض بما رحبت، ويخرج بالعزم من عوائده ومألوفاته ومخالفة أمر ربه، وتضيق عليه نفسه فيفر منها إلى الله تعالى بالحزن والندم الشديدين، حتى تهب عليه نسمات وسعة الفضل العظيم وشامل الرحمة ونور غافر الذنب وقابل التوب.

فالتوبة هى أولاً أن يتوب الله على العبد بما يرد عليه منه سبحانه وتعالى من نور العلم، الذى يشعر قلبه بفضل الله عليه وحسن عنايته به فى الدنيا والآخرة، ويشهده سوء صنيعه مع الله سبحانه وتعالى وظلمه لنفسه بمخالفته أمره سبحانه، فيُقبل تائباً على ربه، ولو لم تسبق التوبة من الله للعبد فضلاً منه وكرماً لم يستطع العبد أن يتوب، إذ لا حول ولا قوة إلا بالله، فالتوبة عن الكشف والوجد دليل عناية الله بالعبد وبرهان على إقباله سبحانه وتعالى عليه، والتائبون قليلون لأن أهل محبة الله قليلون، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ البقرة ٢٢٢، ودليل ما قررت قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ النساء ١٧.

فقوله يعملون السوء بجهالة دليل ما قررته أن فاعل السيئات جاهل، ولو علم أنها ذنوب لجهله بمن خالفه وعقوبته عليها، ولا توبة لتوبته ما دام جاهلاً هذا الجهل حتى يرد عليه العلم من الله، فيكشف له حقيقة قبح عمله وسوء مواجهته لربه.

وقوله ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ النساء ١٧، أى عند انكشاف الحق لقلوبهم بما ورد عليها من الله تعالى، وهذا لا ينافى ما قرره أهل التفسير فى قوله: ﴿مِن قَرِيبٍ﴾، أى قبل الموت بزمن يسع التوبة متعقلين لها ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ النساء ١٧، وتوبة الله تعالى عليهم أن يورد عليهم هذا الوارد الربانى، ويوفقهم للاعتراف والندم والعزم على عدم العودة إلى المعصية، حتى يقبل منهم توبتهم، ولديها يُبدل أعمالهم السيئة بأعمال حسنة بتوفيقه، وعقائدهم الباطلة بعقائد القرآن بعنايته، وأحوالهم الشريرة بأحوال الصديقين بحسن توجهاته، قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ الفرقان ٧٠، ولديها يكونون أبدالاً للصديقين وأئمة للمتقين يحبهم الله تعالى ويحبونه.

ما قاله أهل المعرفة فى التوبة

أسأل الله أن يوفقنى وإياك للتوبة النصوح الخالصة لذاته الأحدية من الذنوب التى توجب النقم وتغير النعم وتحبس غيث السماء وتديل الأعداء، قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ النور ٣١، عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وإذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب)، ثم تلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ البقرة ٢٢٢، قيل: يا رسول الله وما علامة التوبة؟ قال: (الندامة)، عن أنس بن مالك أيضاً أن النبى ﷺ قال: (ما من شئ أحب إلى الله من شاب تائب)، والتوبة أول منزلة من منازل السالكين، وأول مقام من مقامات الطالبين، وحقيقة التوبة الرجوع إلى الله، والندم على ما فات، قال النبى ﷺ: (الندم توبة).

إلى قابل التوب المجيب أنيب ... وأسأله فضلاً على يتوب
يطهر أعضائى يزكى لطيفتى ... لتشرق لى بعد الحجاب غيوب
فإنى أرى أمارتى فوق طاقتى ... يمثل لى حال المتاب رقيب
أيا رب أعضائى ونفسى وشهوتى ... أيا رب طهرها فأنت مجيب
وعفواً عن الزلات والذنب كله ... تنزل ولياً أنت أنت حسيب
وهب لى العناية والولاية والهدى ... أمتنى على الإسلام فهو نصيب
وقلبى فطمئنه بذكرك أغننى ... بفضلك يا مولاى أنت قريب

قال النبى ﷺ: (الندم توبة). فأهل الأصول من أهل السُنة قالوا: شرط التوبة حتى تصح ثلاثة أشياء:

١ الندم على ما عمل من المخالفات.

٢ وترك الزلة فى الحال.

٣ والعزم على أن لا يعود إلى مثل ما عمل من المعاصى.

فهذه الأركان لا بد منها حتى تصح التوبة. سئل ذو النون المصرى عن التوبة فقال: توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة. وكان عبد الله بن على بن محمد التميمى يقول: شتان ما بين تائب يتوب من الزلات، وتائب يتوب من الغفلات، وتائب يتوب من رؤية الحسنات. وقال ذو النون: حقيقة التوبة أن تضيق عليك الأرض بما رحبت حتى لا يطيب لك قرار، ثم تضيق عليك نفسك كما أخبر الله تعالى فى كتابه بقوله: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ التوبة ١١٨. وقال ابن عطاء: التوبة توبتان: توبة الإنابة وتوبة الاستجابة، فتوبة الإنابة أن يتوب العبد خوفاً من عقوبته، وتوبة الاستجابة أن يتوب حياء من كرم الله تعالى. وقيل لأبى حفص: لم يبغض التائب الدنيا؟ قال: لأنها دار باشر فيها الذنوب، فقيل له أيضاً: هى دار أكرم الله فيها التائب بالتوبة، فقال: إنه من الذنب على يقين، ومن قبول توبته على وجل. وقال رجل لرابعة: إنى قد أكثرت من الذنوب والمعاصى فلو تبت هل يتوب على؟ فقالت: لا... بل لو تاب عليك لتبت.

قال يحيى بن معاذ: زلة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها. وعن أبى عمر الأنماطى: ركب على بن عيسى الوزير فى موكب عظيم، فجعل الغرباء يقولون: من هذا؟ من هذا؟ فقالت امرأة قائمة على الطريق: إلى متى يقولون: من هذا من هذا؟ هذا عبد سقط من عين الله فابتلاه الله بما ترون، فسمع على بن عيسى ذلك فرجع إلى منزله واستعفى من الوزارة وذهب إلى مكة وجاور بها. قال الله تعالى فى خطاب العموم: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ النور ٣١، معناه: ارجعوا إليه من هوى نفوسكم، ومن ملازمة شهواتكم حتى تظفروا بمعية ربكم عز وجل فى نعيم لا زوال له ولا نفاد، ولكى تسعدوا بجنة عالية قطوفها دانية وتنجوا من النار، فهذا هو الفلاح.

التوبة النصوح

قال تعالى فى مخاطبة الخصوص: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ التحريم ٨. فنصوحاً معناها خالصة لله تعالى، وهى الاستقامة على الطاعة من غير روغان إلى معصية كما تروغ الثعالب، وأن لا يحدث نفسه بعود إلى ذنب متى قدر عليه، وأن يترك الذنب لأجل الله تعالى خالصاً لوجهه، كما ارتكبه لأجل هواه الذميم مجمعاً عليه بقلبه وشهوته، فمن أتى الله عز وجل بقلب سليم من الهوى، وعمل خالص مستقيم مع السُنة، فقد ختم له بحُسن الخاتمة، فحينئذ تدركه الحسنى السابقة، وهذه هى التوبة النصوح، وهذا العبد هو التواب المتطهر الحبيب، سبقت له من الله الحسنى، ومن تداركه ربه بتوبة رحمه بها من سابقة السوءى، وليس أحب إلى الإنسان الكامل من أن يكون ممن ذكرهم فى قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ البقرة ٢٢٢، وكما قال ﷺ: (التائب من الذنب كمن لا ذنب له).

وسُئل الحسن عن التوبة النصوح فقال: هى ندم بالقلب، واستغفار باللسان، وترك بالجوارح، والعزم على أن لا يعود إلى ذنب. وقال أبو محمد سهل رحمه الله: ليس من الأشياء أوجب على هذا الخلق من التوبة، ولا عقوبة أشد ألماً عليهم من فقد علم التوبة. وكان يقول: من ظن إن التوبة ليست بفرض فهو كافر، ومن رضى بقوله فهو كافر. وقد جعل سيدنا على كرم الله وجهه ترك التوبة منزلاً للعمى، وقرنه باتباع الظن ونسيان الذكر، فقال: ومن عمى نسى الذكر واتبع الظن، وطلب المغفرة بغير توبة نصوح. ففرض التوبة الذى لابد للتائب منه هو الإقرار بالذنب، والاعتراف بالظلم، ومقت النفس على الهوى، وحل الإصرار الذى كان عقده على أعمال السيئات، وإطابة الغذاء بغاية ما يقدر عليه، ثم الندم على ما فات من السيئات.

التمس التوبة بعشرة خصال

وجملة ما على العبد فى التوبة، وما تعلق بها عشر خصال:

١ حق عليه أن لا يعصى الله تعالى. ٢ إن ابتلى بمعصية لا يصبر عليها. ٣ التوبة إلى الله تعالى منها. ٤ الندم على ما فرط منه. ٥ عقد القلب على الاستقامة على الطاعة إلى الموت. ٦ خوف العقوبة. ٧ رجاء المغفرة. ٨ الاعتراف بالذنب. ٩ اعتقاد أن الله تعالى قدر عليه ذلك وأنه عدل منه. ١٠ المتابعة بالعمل الصالح، قال ﷺ: (وأتبع السيئة الحسنة تمحها).

والمتصف بتلك الخصال كلها هو التائب حقاً، ومن قصر فى صفة منها كانت توبته بقدر مجاهدته لنفسه، وإذا لاحظت عناية الله عبداً يسر له جميعها، وتفضل عليه بمحبته سبحانه وتعالى له.

ارع الأمانة

قال بعض العارفين: إن لله تعالى يوحى إلى عبده سرين، أحدهما إذا ولد وخرج من بطن أمه، يقول له: عبدى قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً، واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه، فانظر كيف تحفظ الأمانة، وانظر كيف تلقانى كما أخرجتك. وسر عند خروج روحه يقول: عبدى ماذا صنعت فى أمانتى عندك؟ هل حفظتها حتى تلقانى على العهد والرعاية فألقاك بالوفاء والجزاء؟ أو أضعتها، فألقاك بالمطالبة والعقاب. فهذا داخل فى قوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ المؤمنون ٨، وفى قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ البقرة ٤٠.

فعمر العبد أمانة عنده، إن حفظه فقد أدى الأمانة، وإن ضيعه فقد خان الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ الأنفال ٥٨، وفى خبر ابن عباس رضي الله عنهما: (من ضيع فرائض الله عز وجل خرج من أمانة الله). وسُئل يحيى بن معاذ: كيف يصنع التائب؟ فقال: هو من عمره بين يومين، يوم مضى ويوم بقى، فيصلحهما بثالث، أما ما مضى فبالندم والاستغفار، وأما ما بقى فبترك

اللبس وأهله وصحبة الصالحين ومجالسة الذاكرين، والثالثة: لزوم تصفية الغذاء والدأب على العمل.

استعظم ذنبك

من علامة صدق التوبة رقة القلب وغزارة الدمع، وفى الخبر: (جالسوا التوابين، فإنهم أرق الناس أفئدة)، ومن التحقق بالتوبة استعظام الذنوب، كما جاء فى الخبر: (المؤمن الذى يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه، والمنافق الذى يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره). وقال بلال بن سعد: لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى من عصيت. وأوحى الله إلى بعض أوليائه: لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظمة مهديها، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها، فإنما عظمت الذنوب لعظمة المواجه بها، وكبرت فى القلوب لمشاهدة ذى الكبرياء، ومخالفة أمره بمزاولتها، فلم يصغر ذنب عند ذلك، وكانت الصغائر عند الخائفين كبائر.

وقال بعض الصحابة للتابعين: إنكم لتعملون أعمالاً هى أدق فى أعينكم من الشعر، كنا نعدها فى عهد النبى ﷺ من الموبقات، ليسوا يعنون أن الكبائر التى كانت على عهد النبى ﷺ صارت بعده صغائر، ولكن كانوا يستعظمون الصغائر، لعظمة الله تعالى فى قلوبهم لعظيم نور الإيمان، ولم يكن ذلك فى قلوب من بعدهم.

مشهدان فى التوبـة

وقـال بعض العارفين: حقيقـة التوبة أن تضع ذنبك بـين عينيك، وقال آخر: حقـيقة التوبة أن تنسـى ذنبك. وهذان طريقان لطـائفتين، وحالان لأهل مقامين، فأمـا ذكر الذنوب فطريق المريدين، وحـال يحصل بموجبها بتذكـرها الحزن الدائم والخوف اللازم، وأمـا نسيان الذنوب شغلاً عنها بالذكر، وما يقبل عليه من مزيد الأعمال، فطريق العارفين وحال المحبين، ووجهة هؤلاء شهود التوحيد وهى مقام فى التعـرف، ووجهة الأولين مشاهدة التوقيف والتحديد وهى مقام فى التعـريف، ففى أى المقامين أقيم عـبد قام بشهادة وجهـته وعمل بحكم حالته، ومقام شهادة الـتوحيـد أفضـل عند الـعارفين مـن مقام مـشاهـدة التعـريف، وإن كانـت هذه أوسع وأكثـر، إلا أنها فى أصحاب اليمين وفى عـموم المقربين، وشهادة التـوحيد أضيق وأقل، وأهلها أعلى وأفضل، وهى فى المقربين وخصوص العارفين.

الذنب ظُلمة فى القلب

قـال بعضهم: إن العـبد إذا عصـى أظلم قلبه ظلمـة يثور على القـلب منها دخـان يشهده الإيمان فهو مكـان حزن العبد الذى تسوءه سيئته، ويـكون ذلك الدخان حجاباً له عن العلم والـبيان، كما تحجـب السحابـة الشمس فـلا تُرى، فإذا تـاب العبد وأصلح انـكشف الحجاب فـيظهر الإيمان فيأمر بـالعلم كما تبرز الشمس من تحت الحـجاب، ومن هذا قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ المطففين ١٤. قالوا: هـو الذنب على الـذنب حتى يـسود القلب، ويصير الإيمان تحت الحجاب فلا يعرف معروفاً ولا يُـنكر منكراً، وعندها ينكس أعلاه أسفله إذا اسـتكمل سواده، فحـينئذ يـكون قد مـرد على النفاق فـاطمأن به وثبـت، إلى أن ينظر الله تعالى إليه فيعطف بفضله عليه.

بُنى الكفر على أربع

قد جعل سيدنا عَلِيٌّ كرم الله وجهه الغفلة إحدى مقامات الكفر، وقرنها بالعمى والشك، وميل صاحبها عن الرشد، ووصفها بالحسرة فقال فى الحديث الذى يروى من طريق أهل البيت، فقام رجل فقال: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ما بنى؟ قال: على أربع دعائم: على الجفاء والعمى والغفلة والشك، فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء، ومن عمى نسى الذكر، ومن غفل حاد عن الرشد وغرته الأمانى فأخذته الحسرة والندامة، وبدا له من الله تعالى ما لم يكن يحتسب، ومن شك تاه فى الضلالة، وقد وصف الله تعالى المؤمنين بترك المعصية ودرء السيئة بالحسنة، فى قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ الرعد ٢٢، وقد جعل هذا من وصف العاملين الذين صبروا فقال تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ القصص ٥٤، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ الرعد ٢٢ .

أين أنت من التوابين

هذا ما أحببت أن أورده عليك من أحكام التوبة ووصف التائبين، لتزن به أحوالك عند إنابتك إلى الله تعالى، ورجوعك إلى طاعته سبحانه، فإن وجدت ما أورده الله على التائبين من حلاوة الإقبال عليه، ولذة مواجهته تعالى بلا تكلف منك فقل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ الأعراف ٤٣ .

وإن لم تجد من نفسك هذا المشهد العلى، فتيقن أن ذلك من نزوع نفسك إلى حظ ترجوه عاجلاً أو آجلاً، أو لتوبتك على غير مشهد من مشاهد التوحيد، أو لشوب فى إخلاصك، فسارع يا أخى إلى مجالسة التوابين، وسماع علومهم منهم، لتشرق على قلبك أنوار التوحيد، وتعرف قدر ما تفضل به عليك ذو الفضل العظيم، وعظيم ما اجترحته فى جانبه سبحانه وتعالى، حتى تنجذب نفسك بالكلية إلى الإنابة إلى الله، فتكون توبتك نصوحاً، وتوصف بأنك من التوابين، وتتلذذ بمحبة الله لك فتجدد التوبة لكل عمل تعمله لعلمك بقدر نفسك

وقدر عملك ومعرفتك مقام ربك، ولو كان فى نظرك قربة لما تشهده فيه من عجزك عن القيام بواجب شكر المنعم المتفضل، حتى تنبلج لك أنوار التوحيد فيحصل البسط والأنس، فتنسى ذنبك وتقبل على ربك بظاهرك وباطنك، وتكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الأنعام ٨٢.

توبة العامة والخاصة وخاصة الخاصة

العامة يجددون التوبة عند حدوث الذنب، والخاصة يجددون التوبة عند أعمال البر لشهودهم التقصير فيها، وخاصة الخاصة يجددون التوبة بعد عمل القربات لشهودهم العمل لأنفسهم لفهمهم التوحيد بالتوحيد، وهنا أمسك القلم عن توبة المحبوبين وإنابة المرادين، لعلو مشاهدهم وخفاء مواجيدهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الإسراء ٨٥، فإن العبارة لا تفى بمشاهدهم، والإشارة لا تبين مواهبهم التى تفضل الله بها عليهم، وإنما هو فضل الله العظيم يؤتيه من يشاء.

وقد كشفت لك الستار عما يمكن أن يبلغه مريد الحق إذا عمل بعلمه، وما يورثه الله تعالى للعاملين بعلمهم علىٌّ عن أن يُسطر على الأوراق، قال الله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ الأنفال ٢٩، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ الطلاق ٥.

وكفى شرفاً بالتوبة أن الله سبحانه وتعالى أخبر أنه يحب التوابين، ومن علم مقدار ما يتفضل الله به على من يحبه، يعلم قدر التوبة ويسارع إليها، ويفوز بالفضل العظيم.

كيف تكون التوبة

وإنى أنبهك أيها المريد السالك أن تلجأ إلى التوبة عند كل ذنب واثقاً بالله سبحانه وتعالى وبوسعة رحمته، معتقداً أنك عبد مذنب، وأنه رب غفور عفو تواب كريم، ولا يهولنك عظم الذنب، فإن ذلك لجهلك بواسع مغفرة ربك، ولا حصوله منك بعد التوبة، فإن ذلك

لجهلك بواسع عفوه، بل سارع إلى التوبة عازماً على عدم الرجوع إلى الذنب باخلاص وصدق، ولو أذنبت فى اليوم مائة مرة، وإنما شنع العلماء على التائب العاجز عن عمل الذنب، فإذا قدر عاد للذنب لأنه لم يتب لله مخلصاً، وعلى من تاب بعد الوقوع فى الذنب إذا أصابته بلية باقتراف الذنب فيتوب منتظراً زوال البلية، وذموا من تاب عازماً على العودة، وهؤلاء لم يكونوا من التائبين عندنا ولكنهم لاعبون، وهم مذنبون بتوبتهم، ويجب أن يتوبوا من تلك التوبة، لأنها ليست توبة حقاً، ولكنها ذنب آخر يضاف إلى ذنوبه، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ يونس ٩٠-٩١، وقوله تعالى: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ النساء ١٨، وأمثال هؤلاء يجب عليهم قبل التوبة أن يسارعوا إلى مجالس العلماء الربانيين، ويستفتونهم فى التوبة حتى يعلموا مم وكيف يتوبون ولمن يتوبون، لأن أمثال هؤلاء من الغافلين الذين لا ترفع أعمالهم لجهلهم وغفلتهم فى العمل، والجاهل لا يقبل الله منه قليل العمل ولا كثيره.

التوبة من التوبة

وكان السلف الصالح يبكون بعد الأعمال الصالحة خشية أن ترد عليهم، حتى قال بعضهم: التوبة من التوبة ألزم. وإن ظهر لبعض من لا معرفة لهم بأسرار التوحيد خطأ قائل هذه الكلمة، ولكنهم لو كوشفوا بمراده لتابوا من توبتهم، فإن التائب إلى الله إذا شهد عمله فى توبته، واعتقد أنه أورد هذا العمل على الله بحوله وقوته، فهو مشرك شركاً خفياً فمثله يتوب – لا من التوبة – ولكن من ذنب آخر هو شهوده عمله فيه، لأن التوبة – كما قررت آنفاً – فضل من الله يتفضل الله به على من يحبهم من عباده، فهو وارد من الحق على الخلق، وهو لأهل مشاهد التوحيد، فالرجوع إلى الله بالتوبة فضل الله على العبد فى الحقيقة، وإقبال منه عليه، فإذا شهد العمل لنفسه واطمأن قلبه به فقد جهل فضل ربه عليه بتوبته، ونسى نعم المنعم عليه برجوعه، فيكون بعد عن الله بما يظن إنه قرب إليه به، فيتوب من هذا الذنب

الخفى إلا على أهل مشاهد التوحيد، فقوله: تاب من التوبة، أى: تاب من ذنب ارتكبه فى التوبة، وللتوابين الناجين مشاهد فى قرباتهم، وأذواق راقية فى عباراتهم، أسأل الله تعالى أن يمنحنا فضله العظيم، وأن يجعلنا من التوابين المتطهرين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

التوبة عمل من أعمال القلوب والجوارح

واعلم أن من أخذ نفسه بالعزم على استبدال قبائح الأعمال بمحاسنها والإخلاص فى الرجوع إلى الله والصدق فى العمل، وملاحظة التوحيد الخالص عند القيام له، فهذا هو العمل القلبى، والعمل بالجوارح هو القيام بالفرائض وملازمة سُنن رسول الله ﷺ، وترك ما كان يعمل من قبيح العمل، والمسارعة إلى الواجب والمندوب، ليستبدل كل قبيح عمله بعمل حسن يعمله، وأعد لكل خصومة صلحاً، ولكل ذلة آتاها للخلق إحساناً يحسن إليهم لوجه الله تعالى تشبهاً برسول الله ﷺ.

وليس بتائب من أهمل عمل القلب وسارع إلى عمل الجوارح، ولا من أهمل عمل الجوارح وسارع إلى عمل القلب، لأنه يتوب من عمل عمله بقلبه وجوارحه، وكل من القلب والجوارح مطالب بالتوبة حتى يتفضل الله عليه بمحبته حقاً، لأن النعيم فى الدار الآخرة للروح والجسم، والشقاء فى الدار الآخرة للنفس والجسم، ومتى زكت النفس أفلح الجسم والنفس، وسمى بمجموعهما مؤمناً، فإن كلمة الإيمان مدلولها عمل القلب وعمل الجسم، وليس بمؤمن من اعتقد وترك الأعمال الظاهرة فإنه كافر عند الله، ولا من عمل بالجوارح وترك الأعمال القلبية فإنه منافق عند العلماء، إنما المؤمن حقاً من جمله الله باليقين الحق ووفقه للأركان والمندوبات، إذن فالتوبة لابد أن تكون بالقلب و الجوارح.

التظاهر بالتوبة

إن كثيراً من أهل الجهالة يتكلفون الأعمال الصالحة أمام الخلق وقلوبهم قلوب الشياطين، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ومن أهل الجهالة من يتكلف الخفاء بالأعمال عند الناس، وهمته متوجهة إلى الشهرة والظهور، فتكون الأبدان متقلبة فى الطاعات، والقلوب مظلمة بالغفلات، ومنهم من يتكلف الخروج عن الاعتدال ظناً أن ذلك تزكية للنفوس وتهذيب لها، كما فعل بعض الأفراد الذين خرجوا إلى الغابات فراراً إلى الله تعالى فيتشبهون بهم فى أعمالهم البدنية ويجهلون مشاهدهم العلية، فتكون لهم بعد ذلك شهرة بين الناس ومنزلة، فيقبلون على الدنيا كالذئاب، ومنهم من يحفظ كلام القوم ويلقيه أمام العامة ليجذب قلوبهم إليه ويسلب أموالهم منهم، وهم فى عملهم هذا يروغون روغان الثعالب.

ومنهم من ينظر إلى أهل زمانه نظر ازدراء فيمقتهم، ويبحث عن عيوبهم، ويحفظ ما ورد فى ذم الأعمال السيئة والبدع المضلة، جاهلاً بحقائقها غافلاً عن سر مدلولها، وعمن قيلت فيهم، فيقوم مُشنعاً على العامة فى أعمال ليست من البدع ولا من الضلالة، فيكون آلة للشيطان يفرق جماعة المسلمين، فيشغلهم عن الموارد الهنية والمشاهد العلية، ويظن أنه مجدد للسُنة، وهو مغرور محجوب مبعود عن الله، ومنهم من يشتغل بالتفضيل فيفضل زيداً على عمرو، حتى يشغل المسلمين عن سنى الأحوال ومقبول الأعمال – كما فعل الرافضة ومن غالى من الشيعة، وكما فعل جهلاء المتكلمين – كل ذلك من الجهل بالله ومن الجهل بالنفس.

والأولى بهؤلاء أن يفتشوا عن مرشد كامل يتلقون عنه الحكمة والمعرفة، ويتركون شأن العامة فإنهم على خير، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ: اللهم إيماناً كإيمان العجائز، وكما قال بعض العارفين: اللهم إيماناً كإيمان الأميين. وقد بينت فى كتاب "مذكرة المرشدين والمسترشدين" ما ينبغى أن يكون عليه العالم والمتعلم والمرشد والمسترشد، والله أسأل أن يحفظ جماعة المسلمين من الأمراض المنتشرة من هؤلاء، وهم الذين فرقوا الأمة إلى بضع وسبعين فرقة، أعاذنا الله من شرهم، وقد بينت فى باب تراجم أفراد الصحابة وأئمة السلف نماذج فى الصراط المستقيم لطالب الله تعالى يهتدى بها فى سيره، وتستنير بها سريرته، لأنهم

أئمة الهدى، والذين أمرنا الله أن نسأله الهداية لطريقهم فى كل يوم أربعين مرة لقوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ الفاتحة ٦-٧، فهم الذين أنعم الله عليهم، أعاننا الله على انتهاج سبيلهم، ووفقنا للعمل الذى يحبه ويرضاه آمين.

التوبة عمل من سبقت لهم من ربهم الحسنى

هؤلاء هم الذين عناهم جل وعلا بقوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ التوبة ١١٢، وهذه الآية الشريفة فصلت لنا إجمال ما كملهم الله تعالى به من المقامات والأحوال.

فإن المؤمن الكامل الذى جمله الله بما كان عليه رسول الله ﷺ هو وأصحابه، لا يكون من هذه الفرقة إلا إذا جمع الله له تلك المعانى ويسرها له وسهلها عليه.

أُنس أهل التوبة بالقرآن

القرآن المجيد موردهم الروى، وروضهم الجنى، وحوضهم المورود، وكوثرهم المشهود، وميزان أحوالهم، ومرجع مقاماتهم، يسألونه قبل العمل فإن أذن سارعوا، وإن منع تركوا واستغفروا، فهو الإمام الناطق وإن صمت، لأنهم يسمعونه عن رسول الله ﷺ، فهو الناطق لهم ﷺ على ألسنتهم به، فتسمعه آذان قلوبهم حضوراً ووجوداً من حضرة رسول الله ﷺ، وإن كان التالى له إنساناً آخر، ولا تعجب أيها السامع فإن للرجال أعظم قسط من مراتب الهداية التى أشار الله تعالى إليها بقوله سبحانه: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ الفاتحة ٦، فإن مراتب الهداية - وإن جلت أنواعها عن الحصر - أصولها عشرة:

أولها كلام الله مشافهة للعبد، كما حصل لرسول الله ﷺ، وكما حصل للكليم عليه الصلاة والسلام، ووحيه الذى يوحيه بنفسه لعبده، ووحيه سبحانه وتعالى بطريق الملك، ثم التحدث لقوله ﷺ: (إن منكم محدثين وإن عمر منهم)، ثم الإلهام بمراتبه وأقلها الرؤيا الصادقة التى هى بعد مقام الإسماع والفراسة والفهم.

ولما كان لرسل الله صلوات الله وسلامه عليهم من مراتب الهداية مقامات خصوا بها – على نبينا وعليهم الصلاة والسلام – واشترك الرجال معهم فى بقيتها، كان لأهل الفرقة الناجية قسطاً وافراً من الوحى بملك الإلهام، ولا تنزعج أيها السامع، فإن الله أوحى إلى أم موسى، وأوحى إلى النحل، وأوحى إلى الأرض، وهؤلاء يتجلى لهم الحق سبحانه فى كلامه فتسمعه قلوبهم عنه سبحانه، ويبلغ بهم القرب إلى فهمه كما ورد عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه حين سُئل، فقال: أو فهم يعطاه عبد مؤمن فى كتاب الله.

فلتالى القرآن حق تلاوته، قسط وافر من مشاهد أسراره وفهم حقائقه وذوق معانيه، وأهل الفرقة الناجية هم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ المجادلة ١١، وقفت بهم الهمة العلية على القرآن، فأحلوا حلاله وحرموا حرامه، لو أمرهم بقتل أنفسهم لقتلوها، أو بمفارقة أموالهم وأولادهم لفارقوها فرحين بالسمع والطاعة، تجلت لهم حقائق القرآن جلية، وانبلجت لهم أنواره العلية ظاهرة، فلم تبق لهم همة إلا فى القرآن ولا رغبة إلا فيه، أحبوا القرآن حُباً ينبئ عن كمال حبهم للمتكلم سبحانه.

كاشفهم الله تعالى بمراده فى كلامه وبحكمته فى أحكامه، فكان سبحانه وتعالى أقرب إليهم من أنفسهم، وتجلى لهم سبحانه وتعالى فى كلامه العزيز، حتى كان الرجل منهم إذا سُئل: لم تعمل هذا؟ يقول: أمرنى القرآن، ولم تترك هذا؟ يقول: نهانى القرآن، وإذا طُلب منه أمر يقول: مَهٍ حتى استشير القرآن، فيقرأ القرآن المرة والمرتين حتى تتضح له حقيقة مآله وسر قصده، فيسارع للتنفيذ أو للترك.

آنسهم الله بجماله، وجذبهم إليه سبحانه بعامل محبته، فكانوا مع الله وهم فى تلك الدار الدنيا، مع ما يحيط بهم من كثيف الحجب وظلمات الأهواء، فكيف بهم إذا فارقوها إلى دار القرب والشهود، ومنزلة الود والمواجهة، سبحان الله هم الرجال حقاً، وهم أئمة أهل الفرقة الناجية الذين بشر بهم رسول الله ﷺ بقوله: (لا تزال طائفة من أمتى قائمة على الحق حتى يأتى أمر الله وهم عليه لا يضرهم من خالفهم)، وقوله ﷺ: (أبقيت فيكم ثقلين لن تضلوا بعدهما، كتاب الله وأهل بيتى)، والمراد بأهل البيت حملة العلم بالله سبحانه وتعالى، الذين

كاشفهم الله تعالى بظاهر القرآن وباطنه وحده ومطلعه، ممن جملهم الله بحقيقة النسب المحمدى الروحانى بدليل قوله ﷺ: (سلمان منا آل البيت)، وتبنيه ﷺ زيداً رضي الله عنه، وقوله ﷺ: (أدخل الإسلام بلالاً فى نسبى)، وخير الناس من اصطفاهم الله تعالى فجملهم بالنسبين، واختارهم لأن يكونوا ورثة لخاتم رسله وأنبيائه صلى الله عليه وعليهم.

فأهل السابقية هم أهل القرآن، وهم المعنيون بقوله ﷺ: (آل القرآن آل الله)، وهم أهل الله الصالحون الذين اتصل نسبهم بربهم باتصالهم بحبل الله المتين الذى هو القرآن المجيد، ومن ذاق حلاوة القرآن وصل إلى الله بأقوى سبب، وصلاً لا ينقطع بعده، فإن القرآن صفة من صفات الله، ومن اتصل بصفة من صفات الله تعالى اتصل بالله تعالى، لأنه بتلاوته لكلام الله – ملاحظاً أنوار المتكلم عاملاً بالقرآن – يتصف بالكلام، والله متصف بالكلام.

وأكمل ما يتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى التخلق بأخلاقه، فإن الله سبحانه وتعالى يحب صفاته، ويحب مقتضياتها ظاهرة فى عبده، وأحب عبد لله من جمله الله بما يحب من صفاته سبحانه، وجعله مظهراً لإشراق أنوار مقتضياته.

وتالى القرآن جمله الله تعالى بصفة من صفاته العلية، والعامل بالقرآن كمله الله تعالى بأنوار مقتضيات صفاته، فالله سبحانه وتعالى المعبود، والمتمسك بالقرآن هو العابد، والله جل جلاله الهادى والعبد هو المهتدى، والله سبحانه المُوَفِق والعبد هو المُوَفَق.

فكأنه اتصف بالصفات المحبوبة لله تعالى – وهى الكلام – لتلاوته للفظه فهو متكلم فى مكانته، لأن الكلام لابد وأن يكون بصوت وحرف، وهناك جامعة تجمعه بربه وذلك من حيث أنه متصف بأجمل صفة يحبها الله سبحانه وتعالى، والمتصف بصفة يحبها الله تعالى يحبه الله تعالى، وبعمله بالقرآن يكون عاملاً بعمل يحبه الله تعالى، والعامل بعمل يحبه الله تعالى محبوب لله تعالى.

(فالقرآن طهور الحب وحلل القرب)، ولا يوفق للعمل بالقرآن إلا من جذبته العناية واقتطعته المشيئة، واختطفته محبة الله السابقة له، وأهل هذه الفرقة هم الذين يتعهدون

القرآن الكريم حق تعهده، ويتلونه حق تلاوته، تبلغ بهم حالتهم فى تلاوتهم أنهم يكاشفون بأنوار مجالستهم للمتكلم سبحانه، سر قوله ﷺ: (يقول الله تعالى: أنا جليس الذاكرين)، ولأجل أن تسارع يا أخى إلى التجمل بأحوالهم أُفصل لك ما كانوا عليه من تعهد القرآن المجيد، والقيام بتلاوته حق التلاوة.

تخلق أهل التوبة بالقرآن

يقرأ المؤمن القرآن متدبراً، فيتحقق منه فى القسم الإلهى بالعلم النافع ذوقاً وحالاً، فإذا قرأ أخبار الرسل السابقين عليهم الصلاة والسلام نظر بعين فكرته، وشهد ببصر عبرته ما أدى إلى غضب الله فاجتنبه، وما أدى إلى رضوان الله فجاهد نفسه أن يتخلق به، ثم نظر إلى ما كان عليه رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم، من الصبر على ما لا تتحمله القوى البشرية، فيصبر عند المقتضيات على قدر منزلته، تشبهاً بهم صلوات الله وسلامه عليهم، وما كانوا عليه من الرحمة بالخلق والحرص والغضب لله عند مقتضاه، والغلظة على أعداء الله عند لزومها، فيجاهد نفسه أن يتشبه بهم عليهم أفضل الصلاة والسلام فيما يعتوره من الشؤون المناسبة لمكانته، ثم يجتهد أن ينبه إخوته المؤمنين على الأعمال التى أوعد القرآن فاعليها بسوء العاقبة، بالحكمة والموعظة، وينشط العاملين إخوته بما مدحه القرآن من الأعمال، ويمدحهم مدحاً يقوى به الإيمان فى قلوبهم ويشجعهم على ذلك، ثم يتدبر آياته فى الأحكام الشرعية، ويتحقق أن هذا الأمر من الله تعالى خاصاً به دون غيره، فيسارع إلى تنفيذ ما أمر الله به عند الاستطاعة، غير ناظر إلى غيره – ولو أهمل وترك – فإن المرء المؤمن أشفق الناس على نفسه وأرحم الناس بها، فيرى أنه أولى بنيل الخير الأبَدِىِّ من كل الخلق، فمتى فهم من القرآن أمراً بمعروف، أو تنبيهاً بفعل خير، أو ترغيباً فى عمل صالح سارع إليه كائناً ما كان وترك غيره، حتى إذا أعانه الله تعالى على فعل الخير واطمأن على نفسه بالقيام به حق القيام، فالأولى له بعد ذلك أن يرشد إخوته المؤمنين، وإن أهمل القيام بما علم، وقام فنظر إلى إهمال الخلق ولم ينظر إلى عيوب نفسه وتقصيرها، كان ذلك سبباً فى هلاك نفسه، وكان كالشمعة تضئ لغيرها وتحترق، وإنما يقرأ المؤمن القرآن ليتجمل بحلاه، وينهل

من طهوره المختوم ويتجمل بجماله، ويتناول من لذيذ معانيه قوتاً لقلبه وغذاء لروحه وطعاماً لنفسه، ومن علامة الغفلة أن يقرأ الإنسان القرآن ثم يسخط على الناس، ويقول: هلك الناس... وهو فى الحقيقة الهالك. أنت أيها القارئ للقرآن عليك أن تسارع إلى نجاة نفسك، وما عليك من غيرك، فإذا تجملت بجمال القرآن وأطاعتك نفسك كنت داعياً إلى الحق بعملك قبل قولك، وبقولك قبل مالك، وأشرقت منك أنوار القرآن على أهل القرآن، فكنت بينهم كالشمس المشرقة يهتدون بنورك، ويستضيئون بقولك وعملك.

إذا سمعت ربك سبحانه يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ البقرة ١٠٤، فاستجب لربك وقل: لبيك ربى وسعديك، واصغ بأذن قلبك إلى ما يقوله ربك، فإن أمرك فسارع إلى السمع والطاعة، وانظر بعين بصيرتك إلى نفسك فأنت أرحم الناس بها، وقم فخلصها من خطاياها وهواها، وغض بصرك عن غيرك، فإنما أنت المنادى بنفسك من ربك، والمنادى هو الله لا أنت، فاستجب لله أولاً، ثم قم منادياً بنداء ربك لأنك عملت بما أمر.

فإذا تلوت الآية التى فيها الثناء من الله والبشائر منه سبحانه، فتدبرها ببصر نافذ وقلب يفقه، وتمثل قدر الثناء من الله تعالى الذى تسارع إليه الأرواح الطاهرة، وجاهد نفسك كل المجاهدة أن تلتحق بمن أثنى الله عليهم، أو تتشبه بهم فتكون ممن أثنى الله عليهم وتشبه بهم، وأى مجد أعظم درجة من مجد من أثنى الله تعالى عليه، ثم تأمل فى الأعمال التى بشر الله عليها عباده، ونافس فى أن تكون ممن بشرهم الله تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ﴾ المطففين ٢٦، ثم تنبه عند تلاوة الآيات التى يذكر الله فيها النعيم الذى أعده لعباده المؤمنين، والخير الذى جعله عند ذكر الجنة ووصفها وبيان ما فيها مما تشتاق إليه النفوس، وتبذل لأجله كل نفيس وغال، فإذا قرأت تلك الآى فتمثل بخيالك تلك الملاذ الجسمانية والنفسانية، والنعم العظمى التى لا نصب بعدها ولا زوال لها، وتدبر ما تناله فيها من مشاهدة وجه ربك جل جلاله ونيل رضوانه، ومجاورة رسله الكرام وأهل محبته من صفوة عباده، واستسهل كل ما يوصل إليها فى نظرك، وانظر إليه حقيراً بالنسبة لها ولو كان فى ذلك بذل المهج، فضلاً عن الأولاد والأموال، فإن نَفَساً فى الجنة خير من الدهر كله فى أكمل نعيم

الدنيا، وكيف لا! ومهما كمل نعيم الدنيا فذكر الموت ينغص، وكل لذة تنقلب ألماً إذا تذكر الإنسان سوء عاقبتها، وكل ما رغبت نفسك فيه فهو مشوب بالأوصاب والبلايا التى ينالها الإنسان فى جمعه، وما يقتضيه جمعه من ضرر الغير، فشتان بين نعيم مقيم فى جوار رب العالمين وفى أمانه ورضوانه الأكبر، وبين ما لا ينال إلا بالمضار والأوصاب، ولا دوام له وعاقبته العذاب، لعلك إذا تخيلت تلك المعانى فى تلاوتك ظهرت لك الجنة جلية فشهدت ما فيها حتى كأنك على أبوابها.

جنة عرضها السموات والأرض أعدت والوجه مرأى الرجال

وبذلك تقبح فى عينك ملاذك، وتسترذل حظوظك، ومتى استقبحت آمالك فى الدنيا، واستنكفت أن تبيع النعيم الأبدى ورضوان الرب العلى بإرادة عاجل وأمل كله وصب يزول عن طالبه أو يزول هو عنه، وليس المؤمن بكامل الإيمان إن لم يتحقق أنه يمشى على الصراط الذى هو أحد من السيف وأدق من الشعرة، وأن الجنة فى نهايته فيسارع إليها، وأن الحطمة تحت قدميه فيخشى أن ينكب فيها، وأن أعماله فى الميزان فيحب أن يثقلها بالعمل الصالح، ذلك لأن القرآن الشريف كرر تلك المعانى على المؤمن لتقوى الذكرى بها، فتكون ذكراً فلا تنسى، ثم يتصورها الخيال فتنطبع فيه بأكمل جمالاتها، فلا تغيب عن النفس طرفة عين، وقد سأل ﷺ سيدنا عمران بن حصين فقال له: (كيف أصبحت؟) فقال: أصبحت يا رسول الله كأنى أرى عرش ربى وكرسيه، فقال له ﷺ: (عرفت فالزم). فالمؤمن إذا قرأ آيات البشائر بالنعيم والرضوان، بحث عن أهلها الذين يتفضل الله عليهم بهذا الفضل العظيم، وفتش عن صفاتهم التى أثنى الله بها عليهم، فسارع إليها، ومسارعته إليها هى مسارعة إلى المغفرة والجنة والرضوان، قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ آل عمران ١٣٣-١٣٦،

والمسارعة إلى تلك الصفات التى ذكرها الله تعالى، مسارعة من يعلم قدر النعمة التى ينالها، والفضل العظيم الذى يفوز به، والخير العظيم الذى يحظى به من الله تعالى، ويكون فى عمله هذا كأنه فى أعلى الجنة تصديقاً لوعد ربه، وتلذذاً بتوفيق الله له للعمل بما يحبه، فيكون كأنه فى جنتين، جنة روحانية وهى بهجة نفسه بالتوفيق والعناية والهداية، وجنة جسمانية وهى تلذذه بطاعة ربه فى تلك الدار الدنيا، ويكون له جنتان يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ الرحمن ٤٦، وهذا ما ينكشف لك يا أخى عند تلاوة آيات البشائر والوعيد.

فإذا أنت قرأت آيات الوعيد والعقاب، اقشعر جلدك، وظهرت لك جهنم بما فيها كما أخبر الله تعالى ظهوراً يشيب لهوله الطفل، ونار الحجاب عن الله بسبب الأخلاق والعقائد الباطلة التى تكب المرء على أم رأسه فى نار الغضب، وهى أشد من نار جهنم لأنها المؤدية إليها، وتخيلت أن من فعل تلك الأعمال عذب بنارين، نار نفسانية ونار جسمانية، أما النار النفسانية فما يعلوه من الحزن والأسف، وأما النار الجسمانية فما ابتلى به من معصية الله، ويرى الجحيم أمامه مكاشفة، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ التكاثر ٥-٦. فتصور يا أخى أعاذنى الله وإياك من الأعمال التى توجب غضب الله وسخطه وأليم العذاب يوم القيامة الذى توعد به الله المخالفين لوصاياه، وارسمها على خيالك عند قراءة الآيات المقتضية لذلك، ثم ابحث عن الأعمال والصفات والعقائد والأحوال التى تؤدى إلى هذا العذاب الأليم، فاجعل بينها وبينك كما بين المشرق والمغرب، واجعل لك حصناً منيعاً من سُنة مولانا رسول الله ﷺ، ووقاية من العمل بهدى السلف الصالح، وخشية من ربك جل جلاله يحفظك الله بها من الوقوع فى مخالفته جل جلاله.

وكن يا أخى كالرجل الجائع الذى إذا ذكر له الطعام تنبهت شهوة الجوع فى معدته لتخيله طعمه وريحه، فإذا ذكرت آيات البشائر والنعيم تنبهت الرغبة فى قلبك، وتباعدت عما يوجب الحرمان منها.

كرر الله تعالى قصص الأنبياء وأخبار الجبابرة، وأحاديث المؤمنين فى كتابه، لتتجمل عند التلاوة بكل تلك الأخلاق النبوية، وتتباعد عن صفات الجبابرة الطغاة، وتتشبه بمن أثنى الله عليهم ووعدهم الخير المقيم.

كُن أنت يا أخى فى التلاوة المأمور والمنادى، حتى تسمع كلام ربك من ربك جل جلاله، وتتلقاه من حضرة رسول الله ﷺ، فإذا قال ربك: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ البقرة ٤٣، قلت: لبيك وسعديك سمعاً وطاعة لك يا ربى، وإذا قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ المائدة ٩٠، انكشفت لك حقيقة نجاستها، وصارت أمامك أنتن من الجيفة، وأشد ألماً من النار، وقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله، أعنى اللهم على ترك ما تكره والعمل بما تحب، فتكون كأنك تخاطب ربك ويخاطبك، ويتكلم معك وتتكلم معه، ولا تقرأه كما ترجعه الآلة الحديدية، وكما ترجعه الأمكنة الخالية بصدى الصوت فيحرم القارئ مشاهدة أنوار كتاب الله تعالى، ويكون كأنه لم يقرأه أبداً.

وإليك أيها القارئ ترويحاً لنفسك حكمة نظمية فى التوبة.

قال رضي الله عنه:

أتوب وفى قلبى ميول عن الذنب ... وفيما مضى قد تبت يا قوم من ذنبى
عجيب أرانى إذ أميل عن الهوى ... أقارفه بعد الشيبة فى الشيب
وما الذنب إلا ظلمة فوق ظلمة ... أشد ذنوبى غفلتى عن ضيا الرب
أأجهل بعد العلم والشيب أننى ... وحق مقام الحب يا قوم فى غيب
أرى الوجه ما وليت وجهى ظاهراً ... يواجهنى بالفضل فى وجهتى صوبى
أرى خلتى القوام فى طول ليلهم ... أنا النائم الغفلان فى السهو والحجب
ولولا وثوقى أن ربى غافراً ... لذبت من الخوف الشديد من الرعب
وذنبى عظيم خالقى لم تضره ... ذنوبى وأوزارى وشكى أو ريبى
ولم ينتفع منى بذكر وشكره ... أنا عبده الفانى لقد خفت من ذنبى
ولكننى أرجوه جل جلاله ... تجلى تواب ليمنحنى قربى
بفضلك يا وهاب فاغفر كبائرى ... وبالفضل فارفعنى إليك بلا كسب
كبرت وشيبى عم جسمى جميعه ... فهب لى منك الحب فى صولة الجذب
تفضلت أوليت العوالم نعمة ... من البحر والأفلاك والنبت والترب

عطاياك لا تحصى وجودك وافر | على فتب حتى أتوب من التوب
فإن ذنوبى والكبائر كلها | وحقك لم تيئس ذليلاً من الرب

مشاهد فى الصوم والتوب

من الصوم صومى فى صفاء قيامى | من التوب توبى فى ضيا إحرامى
تجردت من رمسى ومقتضياته | وأشرق غيب فى انمحاء ظلامى
وغيبى سر البدء والرسم حاجب | ضياه عن الأبصار والأفهام
يجرد صومى الرسم والروح عندها | تليح لعقلى رتبة الإلهام
يجرد عقلى التوب من ظل رسمه | ونفخة روح القدس كشف مقامى
ففى الصوم تركى مقتضى آدميتى | وفى التوب تركى لازم الأجسام
فصوم وتوب يجمعان ضيا الهدى | فيجمع محبوب على العلام

شرح لمعانى القصيدة بقلم محمود ماضى أبو العزائم

١ لما كان الصوم ترك لمعتاد الصائم كان القيام موجوب لصفائه خصوصاً وأن القيام صلاة والصلاة قسمها الله بينه وبين عبده الحديث القدسى: (إنى قسمت الصلاة بينى وبين عبدى)

ولما كان الإحرام تجرد من المحيط والمخيط فراراً إلى الله تعالى، أشار الإمام ﵁ إلى أن مقامات التوبة نوع هو التجرد لا من الذنوب فحسب بل من شهود حول التائب وقوته بالاستجابة لأمره فراراً من شهود وجوده الباطل إلى وجوده الحق وبذلك يكون هناك تجانس بين الصيام والقيام وبين التوب والإحرام يحصل به الأنس بالله فى كلا الحالين والله أعلم.

٢ والصوم تجريد البشرية من مقتضيات عناصرها ومستلتزمات طبائعها حتى يشرق عليها أنوار الغيب المصون بعد احتجاب ظلام النفوس بإشراق أنوار القدوس.

٣ وهـذا الغيب هو سر الإيجاد المشار إليه فى الحديث القدسى: (كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق، فبى عرفونى) الذى حجبه عن الأبصار المستنيرة والأفهام الزكية هذا الرسم الكثيف.

٤ الذى يجرده الصوم من مسلتزماته الحاجية عندها يطيب للروح أن تكشف للعقل البشرى قبساً من نور الإلهام.

٥ وكما يجرد الصيام الجسم الانسانى من مقتضيات بشريته، يجرد التوب عقله من ملابسات هذا الرسم حتى تسطع أنوار روح القدس على العقل فتكشف له سر مقامه، الحديث القدسى: (أول ما خلق الله العقل فقال له: أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر، فقال: وعزتى وجلالى لأثيبن بك ولأحاسبن عليك)

٦ ولما كان الصوم والتوب يتفقان فى معنى الترك لزم الإشارة إلى نوعى الترك فيهما، فالصوم يخرج به الإنسان من مقتضى أدميته كما أن التوب ترك لمعتاد الأجسام التى خلقت من أسفل سافلين الطبيعة.

٧ ثم أشار رضي الله عنه إلى ثمرة هذين التركين الصوم والتوب من حيث أنهما يشعان على العبد المؤمن ضياء الهدى القرآنى، فيحصل بها الجمع على العلام سبحانه بسابق محبة الله للعبد المؤمن. (هنا انتهى شرح محمود أبو العزائم).

التائبون وتلاوة القرآن

يستحب للتائب أن يختم القرآن فى كل أسبوع ختمتين، ختمة بالنهار وأخرى بالليل، ويجعل ختمة النهار يوم الإثنين فى ركعتى الفجر أو بعدهما، وختمة الليل ليلة الجمعة فى ركعتى المغرب أو بعدهما، ليستقبل بختمته أول النهار وأول الليل، فإن الملائكة تصلى عليه إن كانت ختمته ليلاً حتى يصبح، وتصلى عليه إن كانت نهاراً حتى يمسى، فهذان الوقتان يستوعبان كلية الليل والنهار، وفى الخبر: لم يفقه من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث، وأمر رسول الله ﷺ عبد الله بن عمر أن يقرأ القرآن فى كل سبع، وكذلك جماعة من الصحابة يختمون القرآن فى كل جمعة، عن يحيى بن الحارث الدينارى عن القاسم بن عبد الرحمن قال: كان عثمان بن عفان ﷺ يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة، وليلة السبت بالأنعام إلى هود، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم، وليلة الإثنين بطه إلى ﴿طسٓمٓ﴾ القصص ١، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ﴿صٓ﴾ ص ١، وليلة الأربعاء بـ﴿تَنزِيلُ﴾ الزمر ١، إلى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ الرحمن ١، ويختم ليلة الخميس. وكذلك كان زيد بن ثابت وأبى يختمان القرآن فى كل سبع، وعن ابن مسعود أنه قرأ القرآن فى سبع ليال فكان يقرأ فى كل ليلة سبعه، إلا أن ترتيب مصحفه على غير ترتيب مصحفنا هذا فلم يذكره، وجماعة يذكر عنهم ختم القرآن فى كل يوم وليلة.

واعلم أنه لا يجد فهم القرآن من فيه أدنى بدعة، أو مصر على ذنب، أو عبد فى قلبه كبر، أو مقارف لهوى قد استكن فى قلبه، أو محب للدنيا، أو عبد غير متحقق بالإيمان، أو ضعيف اليقين، ولا من هو واقف عند مبناه غافل عن معناه، ولا عبد يتتبع حروفه وأخباره، ولا ناظر إلى قول مفسر ساكن إلى علمه الظاهر، ولا راجع إلى معقوله، ولا قاضٍ بمذاهب أهل العربية واللغة فى باطن الخطاب، أو فى سر ﴿الٓمٓرٰ﴾ الرعد ١، وغيرها من رموز القرآن الشريف، فهؤلاء كلهم محجوبون بعقولهم، مردودون إلى ما فى علومهم، موقوفون مع ما تقرر فى عقولهم، مزيدهم على مقدار علومهم وغرائز عقولهم، وهؤلاء مشركون بعقولهم وبعلومهم عند الموحدين، وهذا داخل فى الشرك الخفى، قال محمد بن على بن سنانة: إذا كان معقوله وعلمه عن عقل غير كامل، فإن العقل الكامل ما عقل عن الله عز وجل، وفهم حكمه

وكلامه، وقد قال رسول الله ﷺ فى صفة كمال العقل: (العاقل من عقل عن الله سبحانه وتعالى أمره ونهيه)، وفى الخبر: أكثر منافقى أمتى قراؤها. فهذا نفاق الوقوف مع سوى الله تعالى والنظر إلى غيره – لا نفاق الشرك والإنكار لقدرة الله عز وجل – وهذا لا ينتقل عن التوحيد، ولكنه لا ينتقل إلى مقام طالب المزيد، فإذا كان العبد ملقياً السمع بين يدى سميعه، مصغياً إلى سر كلامه، شهيد القلب لمعانى صفات شهيده، ناظراً إلى قدرته، تاركاً لمعقوله ومعهود علمه، متبرئاً من حوله وقوته، معظماً للمتكلم، واقفاً على حضوره، مفتقراً إلى الفهم بحال مستقيم، وقلب سليم، وصفاء يقين، وقوة علم وتمكين، سمع فصل الخطاب، وشهد علم غيب الجواب.

وأفضل القراءة الترتيل، لأنه يجمع الأمر والندب، وفيه التدبر والتذكر. عن سيدنا على كرم الله وجهه: لا خير فى عبادة لا فقه فيها. ولا فى قراءة لا تدبر فيها. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما و أتدبرهما أحب إلى من أن أقرأ القرآن كله هذرمة. وروى عنه أيضاً: لأن أقرأ إذا زلزلت والقارعة أتدبرهما أحب إلى من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهدراً. وسئل مجاهد عن رجلين دخلا فى صلاة فكان قيامهما واحداً، إلا أن أحدهما قرأ البقرة والآخر قرأ القرآن كله، فقال: هما فى الأجر سواء لأن قيامهما كان واحداً، وأفضل الترتيل والتدبر فى القرآن ما كان فى صلاة، وقال بعضهم: إنى لأفتتح السورة فيوقفنى بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها حتى يطلع الفجر.

أدبهم فى الاستماع للقرآن الكريم

معلوم أن الجلوس لسماع القرآن من حافظ يتلوه من السُنة، وقد سمعه ﷺ من أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه، وعجب أبو موسى عندما طلب منه رسول الله ﷺ، فقال: (أُسمِعُك يا رسولَ الله وعليك نزل؟ فقال ﷺ: إنى أُحب أن أسمَعَه من غيرى). ولا إنكار على من اجتمعوا وبينهم حافظ يسمعهم كلام الله تعالى، إذا استحضروا بقلوبهم أنهم يسمعون كلام الله جل جلاله، وأصغوا إليه إصغاء يليق بآداب من يسمع كلام الله تعالى، ملاحظين ما قدمته.

ولكن المنكر ما أبدعه أهل الغفلة من اجتماعهم على قارئ يسمعون صوته ويجهلون قدر الخطاب، فتراهم يسمعون آيات الوعيد للعصاة، والزجر عن أفعال الشر، والتشنيع على فاعل الفحشاء مما تذوب له الأكباد وتقشعر له الجلود، فيصيحون مبتهجين بلذة النغم غافلين عن معنى الخطاب، وإذا قرأ القرآن أمامهم من لا يحسن التوقيع، أو كان ردئ الصوت، صرفوا وجوههم عنه، كأنهم لم يسمعوا كلام الله، وذلك من غفلة قلوبهم وجهلهم بقدر القرآن الشريف، وإن ذلك لمن أكبر المنكرات.

حكم تلاوة القرآن فى المآتم والأفراح

لم يكن فى عهد السلف الصالح الاجتماع فى الأحزان على قارئ ولا فى الأفراح، وهى بدعة، ولكن لابد لوضعها من سر، والغاية تبرر الوسيلة، فإن كان المراد بهذا العمل تنبيه القلب بكلام الله تعالى ليصبر المصاب، ويفوض أمره إلى الله، ويرضى بقضاء الله، فهى بدعة حسنة، والبدعة الحسنة فى حكم المرغب فيه، وقد تكون مؤكدة لمحو البدعة المضلة، فإن المصابين قد يجتمع عليهم الناس فيعملون أعمالاً تغضب الله وتعذب الميت، فإذا سمعوا كلام الله لانت قلوبهم وخشعت من خشية الله، ورضوا عن الله، وكفى بالقرآن واعظاً، وكذلك فى الأفراح، فإن الناس يتغالون فى أفراحهم، وقد يرتكبون الآثام لما يعرو القلب عند نشوة الفرح، من الغفلة الموجبة للفخر والرياء والخروج عن الاعتدال، فإذا جلس بينهم قارئ للقرآن وأصغوا إليه اقشعرت جلودهم، وتحققوا أن الدنيا دار فانية، وأن اللذة الحقيقية فى الجنة، فامتنعوا عن الإفراط والتفريط، هذا العمل إن كانت الغاية منه ما قررته، فهو – وإن لم يعمل به فى السلف الصالح – فهو فى زماننا هذا يكاد أن يكون مؤكداً، فإن كانت الغاية منه الفخر والرياء وسماع الأصوات والألحان، فهو المنكر حقاً، ولا يليق بمؤمن أن يعمل منكراً فى أحزانه وأفراحه، فإن المؤمن فى أحزانه مضطر إلى الله تعالى، وفى وقت أفراحه منعم عليه، يجب عليه أن يشكر الله ليديم له الفرح، فإن عصى الله فى حزنه، وعصى الله فى فرحه، عرض نفسه للبلاء.

الصيام جهاد والتوب جهاد

الصيام جهاد وسياحة للعقل ومشاهدة للروح ومن صام بتلك الحقائق فقد نفذ من أقطار السموات والأرض بسلطان الحق، ومن صام صيام أهل العادة بترك الأكل والشراب وملامسة النساء ولم يجاهد نفسه ولم يسيح بعقله ولم يشهد بروحه، فليس له من صيامه إلا الجوع والعطش ولا من قيامه إلا العناء والسهر. والصيام التجرد من الإنسانية بعد التجرد من الحيوانية، وكيف لا يكون كذلك والله تعالى يقول: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ مريم ٢٦، لأن الصيام خروج من مرتبة الإنسانية للاتحاد بالمكانة الملكوتية، فالصائم لا يتكلم مع الإنسان مع أنه مجانسه، وقال سبحانه ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ مريم ١٠، فنفت الآية الأولى كلام الأناسى ولم تنف الكلام مع الملائكة، وفى الآية الثانية نفت كلام الأناسى وأثبتت الكلام مع الملائكة وذلك لأن الحقائق الحيوانية أمسكت عما تقتضيه المجانسة مجاهدة لتفوز بالمشاهدة، والصيام لغة الصمت والصيام عند الصوفية صولة الروح على الجوراح صولة تجعلها تجانسها مجانسة ما، فيجاهد فى سبيل الاتحاد بها من حيث ما تقتضيه الروح فى حقيقتها، وبكمال تلك الحقيقة تمنح الجوراح قبساً من الملكوت الأعلى تنال به الرفعة عند ردها إلى أسفل سافلين، وبتلك الرفعة تتلقى من ربها كلمات الإنابة الموصلة إلى المقام الذى أكرمها ربها به فى الرتبة الآدمية، إلا أن آدم أسكن فى مقام الزوجية النفسانية الجنة متمتعاً بنعيمها، وهذا الصائم يكرم بدخول جنة الرضا متنعماً بأسرارها لتجرده من مقتضيات الجوراح المجترحة بترك ما أبيح له مما لابد منه، والإقامة فى محاب الله ومراضيه، فيكون صائماً بكل جوارحه مع وجود المقتضى لا فقده، وهو الجهاد الأكبر جهاد الحس والنفس والعقل والجسم معنى قوله ﷺ: (الصيام جنة)، وليس بصائم من ترك ما أبيح له ووقع فيما حرم الله عليه، وعلامة قبول الصيام تخلق الصائم بأخلاق الله أو على الأقل بأخلاق عالم الطهر الروحانى من عمار الملكوت. والصيام سياحة عُظمى، قال الله تعالى: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ التوبة ١١٢، بمعنى الصائمين. والصيام صبر على خرق العادة وبذلك يكون الصائم مع الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ البقرة ١٥٣، والصابرون من معناها الصائمون

فجاهد نفسك فى الصيام بأن تتخلق بتلك الأخلاق مهما ضحيت بكل غال ورخيص فى سبيل ذلك لتفوز بمعية الله لك، وبقدر نزوع النفس إلى ما يخالف تلك الآداب وقهرها عليها رفعتك وقربك، وفقنا الله إلى صيام به نجالس العالم الأعلى إنه مجيب الدعاء.

تعالوا نزك أنفسنا

إن للقلوب آذان ولكنها لا تسمع إلا من ألسنة القلوب، ولها عيون ولكنها لا تبصر إلا بعد ظهور الغيوب، وللأرواح عيون ولكنها لا تبصر إلا بالبصير إذا سعدت بموالاة العليم الخبير.

ومن أبصر بعيون القلوب شهد الآيات، ومن أبصر بعيون الأرواح شهد التجليات، ومن كان الحق سمعه وبصره شهد ما لم يبين بعبارة ولا بإشارة، وهنا تسجد الأرواح فكيف يكون حال الأشباح! هى سواطع أنوار تخطف الأبصار وتتكشف للبصائر حتى تسمع بالسميع وتبصر بالبصير، وإنما ترى الحق إذا نفذت من محيط الخلق ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ ۝ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ البروج ٢٠-٢٢.

إنما تكون الوسعة من الله لعبيده بقدر ما منحهم من وسعة قلوبهم لعباده ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة ٢٦١. ومتى أحب الله العبد منحه الوسعة، وخير الوسعة أن يخلقه بأخلاقه ويتفضل عليه بجمال الرضا عنه، فيرضى العبد عن ربه رضاء ربه عنه، ومقام الرضا فوق المقامات وهو سر التحقق بالعبودة بعد العبودية والعبادة ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ الأحزاب ٢٣.

الصفاء معراج الاصطفاء، والصفا تزكية النفس بالوقوف عند آداب الشريعة المطهرة حتى تجانس عالم الطهر، وبمجانستها لهذا العالم لا تقوى قوى الجسم على تظليلها بظلال الهوى فيحجبها عن مجانسها، فإنها إذا تزكت مالت عن مفارقها إلى ما يقتضيه جوهرها الصافى، ولديها لا تقوى القوى الأخرى أن تتسلط عليها فتشغلها بخصوصياتها، ويكون لها السلطان على جميع الهيكل الانسانى.

العلم والعمل

اتفق أئمة العارفين على أنه لا نجاة إلا بمعرفة الله تعالى، وأن العلم بالله هو وحده النجاة فى الدنيا والآخرة، لم يختلف عليهم إلا من لم يفقهوا ما يريدونه، فظنوا أن العارف بالله ناج لو ترك العمل بمقتضى أوامر الله تعالى، إلا أن العلم بالله تعالى يكسب الخشية التى تجعل القلب يتمثل عظمة أعجزت الأرواح، وفضلاً عظيماً أعجز العقل حصره، فيجذبه العلم بالله إلى القيام بكمال شكره، والشكر عندنا هو العمل، قال سبحانه: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ سبأ ١٣، فمرادهم بالعلم العلم الذى يجذب إلى المسارعة لنيل رضوان الله بالعمل بمحاب الله ومراضيه، فإن العلم عندهم أن يرسم على جوهر النفس صورة المعلوم سبحانه، حتى تكون هذه الصورة معالم بين عينى العالم باليقين الحق أنه عبد لرب قادر منعم حكيم، ومثل هذا لا يغفل إذا غفل الغافلون، فهو بين حضور اتحادى أو استحضار جذبى. إذاً فمراد الأئمة رضى الله عنهم بالعلم، العلم الذى ينتج الخشية من الله تعالى، لا ما يتلقاه المتعلمون من علم الأحكام ومن علم الجدل فى العقائد ومن علم الأدب، فإنها علوم قد تكسب قسوة لا خشية، وعملاً لا يكون معتمداً على العلم لا يُقبل، قال سبحانه: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ العنكبوت ٤٣، وقال سبحانه: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ الزمر ٩، فسوء الظن بالأئمة من الجهل بحقيقتهم، ومن قال بأن العلم ينجى من غير عمل فليس من الناجين، فضلاً عن أن يكون من الأئمة، اللهم إذا ضاق الماعون عن قبول الفيض، فذهبت الحقيقة وتمزقت اللطيفة واختل الميزان وثبت الإيمان، قال تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ﴾ الفتح ١٧، حفظنا الله وإخواننا بالصدق فى متابعة رسول الله ﷺ بالعمل بما كان عليه سلفنا الصالح.

رعايـة الوقت

الظهـور له سبحـانه وأنت المظـهر، فهـو سبحـانه يظهـر بما شـاء وكيف شـاء، وأنت محل التأثير والتأثر، فاعط كل ظرف مقتضاه فى وقته بحسب ظهوره هو، لا بحسب ظهورك أنت، والحظ أنـك عبد لـرب فاعل مختـار مربوب له، ومظهـر لظهـور ما تـقتضيه إرادتـه أو أبدعته قـدرته، وأدرك حكمة الـظهور منه فـيك حتى تكـون له مخلصاً بـه، فإذا أورد عليك وارد الحق مـن محابه ومـراضيه ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ الكهف ٢٣-٢٤، لأنك تجهل ما تقـتضيه إرادته وتـعجز عن تـنفيذ مـا ورد عليك إلا به، ولا وثيقـة لديـك على بقائك لنفس آخـر، فإذا تحققـت بكمال التوحيـد، ورد عليك وارد التوحيـد فى مشهـد محو الـواحد بـالأحد نـسيت من سـواه به ظهوراً، وفى هـذا المقام يحلـو الذكـر ويلذ الفكـر وتشهـد حقيقة ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ الكهف ٢٤، فإذا كنت مع المـرشد معيـة اتحاد لك منه الأسـوة ونسيت هـذا الـشهـود ،فـاستعـذ بـالله من النـسيـان وتـأدب علماً وقل: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ الكهف ٦٣، فإذا ذكـرت حضـوراً فالحـظ ما فـوق ذلك من بهـاء يخطفه سـاطع أنواره الأرواح، وضيـاء تسجـد دون فنـائه العقـول، وجلال أخشع الـقلوب، وجمـال هيم الـنفوس، وكمال خفيت معالمه على الأرواح القـدسية، فأقبل ضارعاً واسأل خـاشعاً راجياً ومحققاً طامعاً قائلاً: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا﴾ الكهف ٢٤، فإذا راعيت ما لربك جل وعلا من الفضل والإحسـان، وأنت كنت يـا أخى لا تسـتحق ما تفـضل به عليك من الجـمال والحنان، ولكـنه سبحـانه وتعـالى يقـول: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ ق ٣٥، وخير عبـاده من عـرف نـفسه بـالبـذل فى المراتـب الأربع، وعرف ربه بالعجز عن إدراك ما ظهـر من آياته وقوى طمعه مع دناءة رتبته، فإن الله رغبنا بما به بشرنا قائلاً: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ محمد ٣٥، والله ذو فضل عظيم.

التقرب إلى الله

التقريب جذبة العناية والتقرب جذبة الولاية، فكن فى مقام تقربك عظيم الرعاية، وفى مقام تقربك مسارعاً إلى ما فرض عليك مهما قهرك الحال الجاذب.

فى مقام التقرب دقائق العلم وخفى الآيات وعظيم الفتن، فحافظ فى هذه المقامات على أنفاسك فإن الأحداث والكائنات تنادى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ البقرة ١٠٢، وكمال الأدب فى هذا المقام أن تجعل قلبك الذى هو حقيقتك الإنسانية مقبلاً بالكلية على ربه، وأن يقبض بيمينه على ميزان الشريعة، فتنفذ ما كان حقاً وتترك ما ليس بحق، وتقف عند ما لا يتبين لك وجه الحق فيه حتى يستبين لك، ولو جذبتك جواذب الشهود أو دفعتك دوافع الأمل أو رغبتك مقتضيات الشهوة والحظ، فإن رقيك فى مقام جهادك لنفسك فوق رقيك فى مقام بسطك أو أنسك، ولا تشتغل بتدبير الشؤون بل اشتغل أولاً وبالذات بفهم الحكمة فيها، ثم بمراد الله منها، ثم بحكمة الله عند نزولها لتكون ممن بشرهم رسول الله ﷺ:(احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك أو تجاهك، كن مع الله ترى الله معك)

لباس التقوى

إن هناك لباس يحفظك من الآثار، وآخر يحفظك من الأبصار، ولباس يحفظك من شيطان الحظ ووحش الشهوة وبهيم الهوى وطمع النبات وجبن الجماد، وهو لباس يهبك الله به تكون فى جنة الشهود ونعيم الوجود من غير كد ولا جهود ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ الأعراف ٢٦، وهذا الثوب القشيب والحلة البهية هى حفظ مرتبتك عبداً عابداً لرب قادر حكيم معبود، وباطن هذه الحلة كمال اليقين بقدره وظاهرها جمال صفات ربك، فالبسها شاكراً من وهب لك ظاهرها، وحاضراً بالفضل برتبتك مع من صاغك بيديه، لتسارع بما وهب لك منه إليه. اعط كل ذى حق حقه واحفظ لنفسك حقك تكن عند ربك، ولديها يغنيك الله بحلة الجمال الموهوبة منه لك عند كل ما تجهد نفسك فى نيله، والحظ قوله تعالى ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الزمر ٣٤.

تم بحمد الله وحسن توفيقه

الفهرس

فاتحة الكتاب ٥

التوبة ٧

ما قاله أهل المعرفة فى التوبة ٨

التوبة النصوح ١٠

التمس التوبة بعشرة خصال ١١

ارع الأمانة ١١

استعظم ذنبك ١٢

مشهدان فى التوبة ١٣

الذنب ظلمة فى القلب ١٣

بنى الكفر على أربع ١٤

أين أنت من التوابين ١٤

توبة العامة والخاصة وخاصة الخاصة ١٥

كيف تكون التوبة ١٥

التوبة من التوبة ١٦

التوبة عمل من أعمال القلوب والجوارح ١٧

التظاهر بالتوبة ١٨

التوبة عمل من سبقت لهم من ربهم الحسنى ١٩

أنس أهل التوبة بالقرآن ١٩

تخلق أهل التوبة بالقرآن ٢٢

مشاهد فى الصوم والتوب ٢٧

شرح لمعانى القصيدة بقلم محمود ماضى أبو العزائم ٢٧

التائبون وتلاوة القرآن ٢٩
أدبهم فى الاستماع للقرآن الكريم ٣٠
حكم تلاوة القرآن فى المآتم والأفراح ٣١
الصيام جهاد والتوب جهاد ٣٢
تعالوا نزك أنفسنا ٣٣
العلم والعمل ٣٤
رعاية الوقت ٣٥
التقرب إلى الله ٣٦
لباس التقوى ٣٦
الفهرس ٣٧

almashahed
www.almashahed.com